مجلة آفاق علمية ISSN: 1112-9336
المجلد: 13 العدد: 05 السنة 2021 ص 495 - 512

تاريخ الإرسال: 2020/10/01 تاريخ القبول: 2021/09/18
تاريخ النشر: 2021/11/04

أسس نقد الخلاف النحوي واختلاف القراءات القرآنية من خلال النشأة والتطور

Foundations of criticism of the grammatical disagreement, and the Qur'anic readings differed through emergence and development

أحمد قرومي[1]
جامعة الجزائر 1 (الجزائر) [1] a.guerroumi@univ-alger.dz

الملخص:

لقد نشأ النحو العربي في ظل القرآن الكريم ولعل الدف الأساس هو صيانة اللسان العربي من الوقوع في الخلل والزلل، ومعلوم أن الخلاف النحوي ارتبط ارتباطا كبيرا باختلاف القراءات القرآنية والتي كانت القضية المهمة في ميدان الخلاف النحوي ومسالكه واتجاهاته،ومصنفاته، وإن الإشكالية المطروحة من خلال هذا تتجلي في التساؤلات التالية: ما هي العلاقة أسس الخلاف النحوي وعلاقته باختلاف القراءات القرآنية؟ ما هي طبيعة الاشتراك الخلاف النحوي والقراءات القرآنية ؟ ما هي أوجه الاتفاق والاختلاف بينهما ؟

الكلمات المفتاحية: أسس الخلاف، النحو العربي، القراءات القرآنية

Abstract:

Arabic grammar arose in the shadow of the Noble Qur'an and perhaps the basic daff is the maintenance of the Arabic tongue from falling into flaws and slips. It is known that the grammatical dispute was closely related to the different

Qur'anic readings, which was the important issue in the field of grammatical controversy, its paths, directions, and its compilations, and the problem raised through this It is reflected in the following questions: What is the relationship of the foundations of the grammatical dispute and its relationship to different Quranic readings? What is the nature of participation in grammatical disagreement and Quranic readings? What are the points of agreement and differences between them?
Keywords: Foundations of discord, Arabic grammar, Quranic readings

المؤلف المرسل:أحمد قرومي ، الإيميل: A.GUERROUMI@UNIV-ALGER.DZ

1.المقدمة:

لقد ارتبط الخلاف النحوي باختلاف القراءات القرآنية ويتمثل ذلك المراحل الأساسية، بداية من الرعيل الأول الذي حمل قصب السبق في الجمع بين العلمين، علم النحو وعلم القراءات، وإن اختلاف القراءات القرآنية بتنوعها وطرقها ساهمت فيه عدة أسباب منذ عصر النيρ إلى عصر تدوين العلوم.

المبحث الأول: الخلاف النحوي وعلاقته باختلاف القراءات القرآنية

أولا: أسباب اختلاف القراءات القرآنية

يرجع الباحثون والدارسون أسباب اختلاف القراءات القرآنية إلى الأسباب التالية[1]:اختلاف قراءة النبي ρ واختلاف تقريره ρ، واختلاف النزول،و اختلاف الرواية عن الصحابة واختلاف اللغات واللهجات.

ثانيا: تاريخ التدوين في القراءات

لقد تعددت أوجه القراءات القرآنية فتصدي لها العلماء بالبحث والتدقيق من أجل ضبط القراءات المختلفة وفق ضوابط معينة، لكي تتضح معالمها في مسيرة

اختلافها فكان لزاما على علماء الأمة التصدي لهذا الفن بالدقة والتصنيف والضبط فكان من القراء الكسائي من الكوفة وأبو محمد اليزيدي من البصرة وكلاهما حمل علم مصره وقراءته واشتهرت المناظرات بينهما وقد أخذ عن الكسائي أبو عبيدة القاسم بن سلام ت224هـ، وكان من رواد التدوين في علم القراءات وله مصنفات فيها[2]، ولقد كان له الفضل في عد بعض القراءات قال عنه ابن الجزري" ولما كانت المائة الثالثة وقل الضبط، كان أول إمام معتبر جمع القراءات في كتاب أبو عبيد القاسم بن سلام وجعلهم فيما أحسب خمسة وعشرين قارئا مع هؤلاء السبعة"[3]، واستمر الأمر كذلك حتى جاء ابن مجاهد 245–324هـ فدرس تلك القراءات وميز بين المشهور منها وغير المشهور وألف كتابه السبعة في القراءات وشواذ القراءات[4]، فكان أول من سبع السبعة وكان واحد عصره بلا منازع[5]، فنلمس في هذه الفترة التداخل بين علم النحو العربي وعلم القراءات من خلال الإرهاصات الأولى لبداية التلقي وحمل العلمين معا، ويتمثل ذلك في الاشتراك بين حملته العلم ورجاله لأن النحاة كان منهم قراء مثل الكسائي وغيرهم، وعليه فإننا نجد ان هذا التنوع في الجمع بين علمي القراءات القرآنية والنحو كانت له المساهمة الكبيرة في تطور الفنين على أيدي علماء انتهت إليهم الريادة في التقعيد والتأصيل، فبينوا النور للسائرين وتسهيل السبيل للدارسين و إيضاح المبهم للغافلين فوسعت دراستهم للعلمين واقتفى على آثارهم جماهير من العلماء المتأخرين جيلا بعد جيل.

ثالثا: ضبط القراءات

لما اتسعت الرقعة الإسلامية ودخل الناس في دين الله أفواجا ودخل العجم إلى الإسلام كانت الحاجة ملحة إلى وضع أسس تتعلق بالكتاب العزيز خاصة في تلك المرحلة التي كانت فيها المصاحف متعددة والبعض يحمل قراءات تفسيرية

لبعض الصحابة وغيرها، ولقد شهدت مرحلة ضبط القراءات القرآنية مراحل مختلفة ولعل من أهمها ما يلي[6]:

المحطة الأولى: جمع المصحف العثماني المجمع عليه و البطولة فيها لعثمان ابن عفان، ان اختلاف الناس في زمن عثمان رضي الله عنه في أوجه القراءات كانت نقطة حاسمة لوضع الأسس والضوابط التي تحكم النص القرآني.

المحطة الثانية: وهي تحديد القراءات السبع والبطولة ابن مجاهد

المحطة الثالثة: إعلان العشرة المتواترة والبطولة فيها لابن الجزري، والذي قيل في فضل كتابه"هو سفر جل قدره، وفاح في الأنام عطره وعز الزمان أن يأتي بمثله، وعجزت الأقلام عن حصر فضله، فهو كتاب حقيق أن تشد إليه الرحال، لما حواه من صحيح النقول وفصيح الأقوال...فهو البقية المغنية في القراءات بما حواه من محرر طرق الروايات"[7].

تحليل ونقد: إن الموازنة بين أسباب الخلاف النحوي واختلاف القراءات القرآنية، تستلزم على الباحث أن يدرك جيدا السلسلة التي مرت بها القراءات القرآنية منذ نزول الوحي على النبيρ وإقرائه للصحابة الكرام على الأوجه المختلفة التي أكدت في حضرته ρ ثم انتشار القراء في الأمصار العربية وانتشار المصاحف التي أرسل بها عثمان ابن عفنان إلى الأمصار وما جاء بعدها من نشأة النحو العربي وإقامة صرحه خدمة لحفظ النص القرآني نجد أنها حلقات مترابطة ومستمرة في لأن الخلاف النحوي نشأ في ظل القرآن ثم تنوعت مسالكه واتسعت معالمه فأخذ بعدها طريقا واضحا له معالمه وأصوله ومناهجه ورجالة، وحصل ذلك بعد بداية استقلال العلوم وانفصالها عن بعضها ، فاقتصر النحاة على طريق النحو والشواهد واقتصر علماء القراءات على جمع الأسانيد وتخريج الروايات والطرق والأوجه المتعلقة بالأداء

وغيرها من روايات القراء وطرقهم، وحصل الاقتصار على ما غلب عليه صاحب الفن الذي يسبح في فلكه.

رابعا: الخلاف النحوي وطبيعته

إن قضية تاريخ الخلاف النحوي تعود بنا إلى مرحلة نشأة النحو العربي ومع الاختلاف الشاسع في هذه المرحلة إلا أن الحلقة متواصلة سواء كان ذلك بأمر من علي بن أبي طالب أم من وضع أبي الأسود الدؤلي أو غيره لأن الغاية من وضع النحو وجمع اللغة ووضع القواعد كان نتيجة العناية الفائقة بالقرآن الكريم كي لا يصل إليه الخطأ وكي يعصم من الزلل لأن الله تعالى توعد بحفظه، وما يؤكّد ذلك قول الدكتور عبد العال سالم مكرم:"إنَّ النّحاة الأُوَل الّذين نشأ النّحو على أيديهم كانوا قرّاءً كأبي عمرو بن العلاء، وعيسى بن عمر الثقفي، ويونس، والخليل، ولعلَّ اهتمامهم بهذه القراءات وجّههم إلى الدراسة النّحوية، ليلائمُوا بين القراءات والعربيّة، بين ما سمعُوا وروَوا من القراءات، وبين ما سمعُوا ورَووا من كلام العرب"[8]

ولقد بدأ الخلاف النحوي وظهر بعد نشأة النحو العربي وظهور التفريع فيه، وبما أن علم النحو العربي انبثق من علم القراءات القرآنية فكان المقصد هو حفظ اللسان العربي من الخطأ والزلل في قراءة القرآن وتلاوته، لأن القرآن الكريم وقراءاته المختلفة والبحث في أوجهها وتراكيبها له علاقة مشتركة بعلم النحو وعلوم اللغة "ولقد ولد النحو في أحضان علم القراءات فكان النحاة الأول قراء"[9] فكان هذا الميلاد وهذه النشأة متلازمتان في المسيرة النحوية والقرآنية، وإن الناظر إلى الخلاف النحوي يجد له علاقة وطيدة باختلاف القراءات القرآنية لأنها كانت المصدر الأول من مصادر السماع والحجية والاستدلال، لأن النحو العربي في بداية مصنفاته، كان له الحظ الوافر من حيث جعله في المرتبة الأولى في إقامة الدليل النحوي والاستشهاد به سواء كانوا قراء أم لهجات قبائل جاء على منوالها الوحي المنزل باختلاف قراءاته، ومثال

ذلك تعامل سيبويه صاحب أول مصنف وصل إلينا مكتمل الأبواب والمباحث، لما عرض سيبويه هذه الأوجه استعمل هذا التلميح، ويأتي بالآيات تصديقا لما يقوله العرب من غير إشارة إلى القبيلة التي تتكلم به مثل أن يقول" واعلم إن قلت في كلام العرب إنما وقعت على أن يحكي بها.

وإنما يحكى بعد القول ما كان كلاما، فيقول نحو: قلت زيد منطلق لا ترى انه يحسن أن تقول: زيد منطلق، وتصديق ذلك قول عز وجل"وإذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشرك"ولولا ذلك لقال أن الله[10]، ولم يقصر عنايته بالقرآن واهتمامه بآياته على تقديمه إياه على غيره من كلام العرب وعلى اعتباره الأساس الأول في الاستشهاد وإنما نراه يعتبره الأصل الأول الذي يقاس عليه"[11]، وقد يسوي في الاستشهاد بين القرآن وبين ما سمع من كلام العرب الموثوق بهم، وما ورد من الشعر العربي مع بقاء القرآن مقدما[12]، ويستدل بالآيات كذلك على ما ورد في الش[13]، وهو يكتفي بالإشارة إلى أن الآية قرئت على وجه من وجوه الإعراب دون اهتمام بذكر القارئ مما يدل على أن المهم عنده أنه يحتج للوجه الذي قرئت به الآية ولايهمه أن يحتج للقارئ فيما ذهب إليه[14].

وهذا من تمام الدقة والفطنة في التعامل مع الشواهد القرآنية في بداية الاستدلال في تعليل الظاهرة النحوية لأن القراءات لم تكن علمت والمصنفات فيها لم تكن وضعت فتعامل في ذلك بحذر وفطنة ، فنراه يقول:" وقرأ أهل المدينة كذا "دون إسناد إلى نافع مثلا، وقرأ أهل الكوفة كذا دون إسناد إلى حمزة أو الكسائي؟ وقرأ بعضهم كذا" أو أن هذه قراءة أهل الحجاز، أو قراءة أهل مكة كذا" دون إسناد إلى ابن كثير؟ أو دفعته العصبية الطائفية والمنافسة في الصنعة إلى عدم ذكر هؤلاء؟[15] ، فهو لا يشير إلى نوع القراءة ولا إلى منزلة القارئ أو مذهبه بصريا كان أم كوفيا أم

مدنيا أم مكيا لان اهتمامه كان موجها إلى ما يرد في القراءة من ألفاظ و تعابير إلى صحتها أو مخالفتها للمشهور وافقت كلام العرب أم خالفته[16].

ولقد تطور الدرس النحوي وبدأ التصنيف في كتب الخلاف وألفت فيه الكتب والمصنفات، ولقد كتب ثعلب (ت291هـ) كتابا باسم (اختلاف النحاة) ، وألف الرماني (ت384هـ) كتابا باسم (الخلاف بين النحويين)،وألفت كتب خاصة تتناول الخلاف بين اثنين من النحاة، فكتب الرماني في (الخلاف بين سيبويه والمبرد) ، والبعض تناول الخلاف بين الكوفيين والبصريين ككتاب (الإرشاد) لابن درستويه (ت347هـ)، والإنصاف في مسائل الخلاف بين البصريين والكوفيين لأبي البركات الأنباري (ت577هـ)، كما لا يكاد يخلو كتاب نحوي من ذكر مسائل خلافية قليلة كانت أو كثيرة[17]

ولعل مجهود علماء النحو العربي لا يخفى على ذي لب وبصيرة مدى عنايتهم واهتمامهم بالنص القرآني وجعله في المقام الأسمى والاستشهاد به وبقراءاته المختلفة وهذا منذ الزمن الأول وما يؤكد ذلك قول الباحث "إلا أن النحاة على امتداد أجيالهم جاهدوا وأبلوا بلاء حسنا في الدفاع عن القراءات القرآنية المتواترة بالتخريج والتوجيه والتأويل نجد ذلك في كتب النحو والإعراب الكثيرة"[18]، وذلك كله حرصا على قدسية النص القرآني وتخريج أوجهه وفق ما يقتضيه الدرس النحوي من قياس وعلل وتأويلات وتخريجات وغيرها

خامسا: أسباب الخلاف النحوي

لقد تنوعت أسباب الخلاف النحوي حسب طبيعة الظروف المحيطة بنشأته وتطوره لأن الخلاف تطور حتى صار فريقان بصريين وكوفيين، ولكل مذهب له رجاله وخصائصه ومميزاته وأصوله وآراؤه التي بني عليها وأسس على نهجها، ولعل من تلك الأسباب ما يلي:

01- المادة اللغوية[19]: لقد أعتمد النحاة في مسارهم اللغوي على قبائل معينة أخذوا عنها اللغة وذلك أن البصريين قد اعتمدوا في تأسيس نحوهم على الثابت من كلام العرب، وشعرهم في الجاهلية والإسلام إلى عصر معيّن، لا يتجاوزونه إلى غيره، واعتمدوا على القرآن في قراءاته العالية، كما اعتمدوا على الثابت المؤيَّد سماعا أكيدا من أمر اللهجات واللغات الخاصة"[20]، وما استقر من تراث لغوي؛ لكثرة تنوعه، وعظم ثرائه، يقول الأخفش "اختلاف لغات العرب إنما جاء من قبل أن أول ما وضع منها وضع على خلاف، وإن كان كلّه مسوقًا على صحة وقياس، ثم أحدثوا من بعد أشياء كثيرة للحاجة إليها، غير أنها على قياس ما كان وضِع في الأصل مختلفًا[21]، وإضافة إلى عامل اختلاف المادة اللغوية وما تفرع عنها من قضايا لغوية ونحوية تندرج تحتها عناصر أخرى في غاية الأهمية وتتمثل في النقاط التالية[22]:

أولا: اختلافهم في فهم القرآن وتفسير قراءاته يتبعه خلاف إعرابي ونحوي

ثانيا: اختلافهم في المسموع عن العرب واختلافهم في تحديد القبائل الفصيحة

ثالثا: اختلافهم في المنهج الذي سلكوه في الدرس النحوي ويتجلى ذلك في النزعة العقلية والمذهبية

رابعا: طبيعة النحو العربي: والتي تقوم على التعليل وتجعل النحوي يرتجل آراء نحوية يتفرد بها، مما أدرى إلى كثرة الانفراديات والترجيحات والتعليلات النحوية

خامسا: الغموض الذي يعتري كثيرا من التراكيب اللغوية

02-اختلاف منهج الدراسة بين الفريقين[23]: بَنى البصريون قواعدهم على المشهور من لغة العرب، بينما توسع الكوفيون في الرواية عن القبائل العربية التي يعدها البصريون في دائرة الفصاحة اللغوية، وقد بنى عليها الكوفيون قواعدهم حتى اشتهر عنهم أنهم لو سمعوا بيتاً واحداً فيه جواز شيء مخالف للأصول جعلوه أصلاً وبوبوا عليه[24].

ولقد نشأ الخلاف النحوي متأثرا باختلاف بالقراءات القرآنية وبتضافر اجتهادات رجال الفريقين سواء كانوا نحاة أم قراء أم ممن جمع بين الفنين من أمثال الفراء والكسائي وغيرهم، ولقد تمت مرحلة النضج والكمال ابتداء من عهد أبي عثمان المازني البصري إمام الطبقة السادسة ويعقوب ابن السكيت الكوفي إمام الطبقة الرابعة إلى عصر المبرد البصري شيخ السابعة وثعلب الكوفي شيخ الخامسة[25]، وقد عرف القدماء الخلاف بين النحويين الكوفيين، وأشاروا إليه. فقد قال أبو الطيب اللغوي" وكان الفراء يخالف على الكسائي في كثير من مذاهبه، فأما على مذاهب سيبويه فإنه يتعمد خلافه، حتى ألقاب الإعراب وتسمية الحروف[26].

ومعلوم أن التلازم بين الفراء والكسائي كان شديدا جدا لأنهما أساسا مدرسة الكوفة، وانتهى الاجتهاد فيه بين الفريقين على أيدي الإمامين المبرد خاتم البصريين وثعلب خاتم الكوفيين، حتى سئل أبو بكر بن السراج أي الرجلين أعلم أثعلب أم المبرد فقال ما أقول في رجلين العالم بينهما[27]، وكان لكل منهما شيعة وأنصارا والعيون لهما رامقة فكانت المناظرات بينهما دائبة و الأغلب بينهما سجالا رحمة الله على الجميع[28]، فالمناظرات كانت تثيرها الرغبة في الوصول إلى الحقائق والاعتزاز بالنفس والعصبية للبلد والنمط العلمي والطمع في الخلفاء والأمراء الذين ساهموا في ذلك، وكان لهم دور، فنصروا وخذلوا ورفعوا ووضعوا[29].

ومن خلال هذه المراحل المهمة تكون المدارس النحوية أخذت طريقها إلى الوجود وظهرت معالمها وصار لكل فريق منهم أصوله ومنهاجه ، فصار النحاة يبحون في العلل والأقيسة وعلماء القراءات في الأسانيد و الروايات والطرق والفرشيات واستقلت العلوم بين الفريقين ، ولكل فريق فنه ومنهجه وخصائصه .

03-المناظرات النحوية: إن المناظرات النحوية كان لها الأثر البارز في تطور المسيرة النحوية وسواء تعلق الأمر بالنشأة والتطوير ومرحلة تقعيد القواعد أم في

مرحلة النضج فيما بعد، ولان علم النحو لم يكن نضج بعد في أغلب مسائله ولم يتخذ شكلا ولا صورة ثابتة يقف أمامها فكان يبدو لكل فريق مالا يلمحه الآخر فكانت المناظرات بين البصريين أنفسهم والكوفيين أنفسهم[30]، وفي أغلب الأحيان كانت المناظرات باتجاه المدرسة والانتماء في الغالب الأعم بين المدارس النحوية، وإن مناظرات الطور الثاني على كثرتها كان قطب رحاها في الكوفيين الكسائي إذ كان دريئهم وحامي حقيقتهم فنازل الأصمعي وسيبويه و اليزيدي وغيرهم[31].

تحليل ونقد: إننا إذا أمعنا النظر في نقاط التقاطع بين القراءات القرآنية والخلاف فيها وجمعاها والتصنيف فيها وبين الخلاف النحوي ونشأته وتطوره، ندرك بأن عامل اللغة يعتبر من أهم الركائز الأساسية المعتمدة منذ العصر الأول قبل عصر التدوين، فمنذ عصر عثمان بن عفان اعتمد اللغة المشتركة وهي لغة قريش وأمر الرهط القرشيين إذا اختلفوا في شيء من القرآن أن يكتبوه بلسان قريش إنما أنزل القرآن بلسانهم، ثم جاءت المرحلة الموالية وكان من أهم الضوابط المعتمدة في قبول قراءة من القراءات موافقة اللغة العربية ولو احتمالا، فنشأت القراءات وتحملها علماء اللغة، واهتموا كذلك بلغة العرب والسماع من البادية مثل ما فعل الكسائي في السماع من أعرب البادية التي لم تفسد ألسنتهم بمخالطة الأعاجم ولم يتطرق اللحن والدخيل من القول إلي فصاحتهم وبلاغتهم، إلا أن العصر التدوين اختلفت فيه المناهج وتنوعت فيه الغايات فبدأ الانفصال في تطبيق الأحكام المعيارية في السليقة اللغوية لإقامة منهج الدراسة النحوية، فتوسع النحاة في الظواهر اللغوية المسموعة عن العرب والمتمثلة في الشعر والنثر ووظفوه في ما أمكن توظيفه في الحجية والاستدلال، ولأن الخلاف هذا لم يأتي من فراغ وإنما هو نتيجة عمل وفكر وجهد قام به أسلافنا من علماء اللغة والقراءات يعد من أجل الأعمال ومن أعظمها في مورثنا اللغوي والقرآني.

المبحث الثاني: طبيعة الخلاف النحوي و القراءات القرآنية من أوجه الاتفاق والاختلاف

إن التطرق إلى طبيعة الخلاف النحوي واختلاف القراءات القرآنية من خلال أوجه الاتفاق بينهما وأوجه الاختلاف ندرك حقيقة العلاقة الزمنية والبعد التاريخي وكذلك المناهج التي لم تكن اتضحت معالمها ولم يشع نورها، وإذا نظرنا إلى كثرة أوجه القراءات قبل ابن سلام وبعده ووصولا إلى عصر ابن مجاهد وبعد عصره إلى عصر ابن الجزري، نجد أن التغير التاريخي كان واضحا في طريق الاستدلال وضبط الاستشهاد لأن القراء أنفسهم استبعدوا أوجها قد تكلم عنها النحاة قبل عصر تدوين القراءات وذلك أنها لا ترتقي إلى الشروط اللازمة للقبول فمثلا أبن مجاهد أثبت القراءات ورد بعض الأوجه، وابن الجزري سار على مسلكه في ذلك .

وإذا كان النحاة قد تباينت آراؤهم في ذلك فنجد سيبويه دافع عن القراءات وتحفظ على بعض الأوجه سواء تعلقت باللغات أم باللهجات العربية أو غيرها، وفي المقابل نجد الفراء دافع عن القراءات ورد بعض الأوجه الأخرى، وإذا كان المبرد دافع عن القراءات فنجده رد بعضها وتوقف في البعض الآخر، وإذا كان الكسائي شيخ القراء وإمام النحاة أيضا توقف هو الآخر في بعض الأوجه منها، وإذا وصلنا إلى الأمام ابن جني صاحب كتاب المحتسب في شواذ القراءات دافع بقوة عن القراءات الشاذة وتحفظ أو رد قراءات متواترة، وإن هذه المراحل التاريخية وفق المسيرة الزمنية لمنهج النحاة من جهة ومسيرة علم ضبط القراءات من جهة أخرى قد تكامل عندما استقامت العلوم واتضحت السبل والمسالك فرجع النحاة إلى مسالك التأويل والترجيح والاختيار، فاستدرك ذلك على أئمة النحاة المتقدمين في منهجهم وطريقة تعاملهم مع أوجه القراءات، من خلال الإرهاصات الأولي لهذا الاصطدام في القراءات القرآنية.

ولعل من أهم ذكره الدارسون في بيان هذه الإرهاصات في رد بعض القراءات والحديث عن أوجهها، فيذهب بعضهم إلى" أن البصريين هم الذين يعارضون القراءة السبعية وليس الكوفيين كما إن رؤساء المدرسة البصرية قد اشتركوا في هذه المعارضة ومن بينهم سيبويه وأستاذه الخليل فليس الأمر مقصورا على المتأخرين من البصريين"[32]، وفي الوقت نفسه نجد الدكتور شوقي ضيف يعارض هذا الرأي بشده بل يراه عكس ذلك، ويذهب إلى أن الكسائي والفراء هما اللذان تطرقا إلى هذه القضية بكل وضوح فيقول:" الكسائي والفراء طعنا في القراءات ويظهر أن الكسائي هو الذي بدأ تخطئة القراء"[33]، ويشير في موضع آخر إلى أن الفراء هو الذي تطرق لهذا الأمر والتعرض للقراءات الشاذة فيقول:" إن الفراء إمام مدرسة الكوفة بعد الكسائي هو أول من تعرض للقراءات الشاذة بالإنكار"[34]، وإذا نظرنا بدقة وتمعن في الدراسات التي تناولت شخصية الفراء، نجد للفراء ثلاثة مواقف متباينة وهي موقف الاستشهاد بالقراءة والاحتجاج بها وتوجيهها، ثم موقف ترجيح إحدى القراءتين على الأخرى ثم موقف في تضعيف القراءة و توهينها، بل الطعن فيها وفي ناقليها من الأئمة القراء العشرة المعروفين[35].

وإذا تمعنا وأمعنا النظر فيما تم ذكره وجرت به أقلام المؤيدين والمعارضين لبعض أوجه القراءات وما انبثق عليها من خلاف وما احتدمت عليها من أقوال في مضانها المعتبرة ومصنفاتها التي ألفت في ميدان الخلاف النحوي ندرك أن بعض المسائل وهي عديدة جدا ومحصورة كانت محل جدل وميدان نظر وإعمال فكر بين النحاة من جهة وبين علماء القراءات ومصنفيها من جهة أخرى وإذا نظرنا من زاوية الخلاف المحتدم بين تلك الأقوال المتباعدة والمتخالفة فيما بينها سواء كانوا نحاة أم قراء نستطيع أن نقول بأن اختلاف القراءات القرآنية واختلاف اللهجات العربية هو

أساس هذا الاختلاف الذي أخذ حيزا مهما في ميدان علم النحو العربي وعلم القراءات ومصنفات كتب التفسير ومصنفات كتب إعراب القرآن الكريم.

ولعل المذهب الوسط والمتقبل في ذلك هو اختلاف النظرة بين المدرسة الواحد أولا ثم الخلاف بين أئمة المدارس ثانيا، فالبعض يدخل في أصول المدارس ولا يمكن تجاوزه لأن القواعد الكلية والأصول العامة تفرض المنهج الذي بنيت عليه أفكار المدرسة ومنهجها، إلا أنها تبقى اختيارات و انفرادات وهي اجتهادات منفردة تنسب لأصحابها في آرائهم ومواقفهم النحوية المختلفة باختلاف الأجيال النحوية "فالجيل الأول من النحاة البصريين كان موقفهم من القراءات موقف من يعد القراءة سنة متبعة، ولكن هناك طائفة من نحاة البصرة المتأخرين تجاوزوا موقف أساتذتهم الأولين، وتعرضوا لبعض القراءات التخطئة تارة وبالرفض والإنكار تارة أخرى، فوقفوا منها موقفهم من سائر النصوص اللغوية الأخرى، فما وافق منها أصولهم ولو بالتأويل قبلوه، و ما أباها رفضوا الاحتجاج به ووصفوه بالشذوذ أو القبح حتى ولو كانت هذه القراءات من القراءات السبعية"[36]، ومع هذا تعتبر هذه الظاهرة قليلة جدا.

ولا يمكن أن نطعن من خلالها في آراء النحاة ومذاهبهم، لان المسلك في ذلك ليس هو الغالب في جل القضايا النحوية، بل في مسائل قليلة جدا وهذا هو مذهب جل الباحثين المحققين ،يقول شوقي ضيف "كان البصريون يردون قراءات ويضعفونها، كان ظاهرة عامة عند نحاة البصرة مع انه لا يوجد في كتاب سيبويه شاهدا واحدا على هذه التهمة الكبيرة"[37]، وإنه من المبالغات والمفارقات العجيبة اتهام النحاة البصريين بالطعن في القراءات على صيغة الكثرة والأغلبية مثل قول عبد الخالق عضيمة:"هذه الحملة الآثمة استفتح بابها وحمل لواءها نحاة البصرة المتقدمون، ثم تابعهم غيرهم من اللغويين، والمفسرين، ومصنفي القراءات"[38].

ولكن هذه النظرة الإجمالية صححها الدارسون وحققوا القول الصواب فيها ولا ينبغي أن تطلق على سبيل الإجمال بل لابد فيها من تحري الرأي الدقيق والمنصف،"وفي الحق أن بصريي القرن الثالث هم الذين طعنوا في القراءات وهي أمثلة قليلة لا يصح أن يتخذ منها ظاهرة لا خاصة ولا عامة، وقد كانوا يصفونها بالشذوذ، ويؤولونها، ما وجدوا إلى التأويل سبيلا"[39]؛ لان المنهج العام الذي سارت عليه المذاهب النحوية على خلاف بينهم من حيث الاستدلال النحوي مع كثرة الشواهد وسعة اللغة العربية سواء من اللغة المشتركة أم لغة قريش أم لغات القبائل الأخرى، ويبدوا أن السبب الذي جعل بعض النحاة البصريين يرفضون بعض القراءات يعود إلى الاختلاف في المنهج بين النحاة والقراء، فإن منهج النحاة يقوم على القياس والاعتماد على أشهر اللغات وأكثرها شيوعا واستعمالا وأحفلها بالشواهد، ثم تعليل هذه الظاهر، في حين يقوم منهج القراء على الرواية دون الالتفات إلى شيوع اللغة أو ندرتها أو شذوذها[40].

ويرى مهدي المخزومي أن كثيرا من النحاة كانوا من المتكلمين، وقد أدركوا عمق الصلة بين الدرس النحوي وأساليب المنطق والكلام ومدى تأثره بأساليب المتكلمين والنظار وكان الدارس النحوي يزداد اتصالا بالفلسفة والمنطق حتى خضع لأسلوبها خضوعا كاملا عند نحاة القرن الرابع" [41]، والأمر لم يتوقف عند القرآن بل تعداه إلى المصادر السماعية الأخرى، وقد كان النحاة يقفون إزاء الأبيات المخالفة لمذاهبهم وأقيستهم فيعمدون إلى التأويل لإدخالها ضمن هذه الأقيسة، فأصبحت تلك الأبيات الخارجة عن القياس المألوف ميداناً رحباً لتأويلات النحاة وتعليلاتهم، فدخلت بسبب ذلك ضمن الخلاف النحوي؛ إذ كل طرف لا يتردد في إلقاء جملة مما احتج به الطرف الآخر في بحر الضرورة[42].

الخاتمة:

إن الخلاف النحوي ارتبط بالقراءات القرآنية ارتباطا وثيقا وذلك منذ النشأة الأولى إلا أن تعدد القراءات كانت منذ عهد الرسول الأكرم أما الخلاف النحوي فكان صونا وحماية لكتاب الله تعالى من التحريف، إلا أن التقعيد النحوي كان أسبق من التدوين في علم القراءات القرآنية والتي كان ضبطها متأخرا جدا عن مسيرة الخلاف النحوي، ثم إن الاستفادة بين الفريقين كانت متبادلة لأن النشأة والمنطلق كان بغية هدف مشترك فكان التداخل بينهما، وإن المنهج السليم قد أخذ طريقه بعدما اتضحت العلوم في القرون التي بعدها كعصر ابن مالك وابن هشام ، وغيرهم ممكن اتضحت لديهم الفكرة فمثلوا بذلك الطريق الجامع بين الأمرين والمقوم للمسلكين، فتداركوا بذلك ما أغلفه الأولون فكانت آراؤهم في كثير من الأحيان تحاول الجمع والتقريب والدفاع عن القراءات المتواترة والشاذة وغيرها.

وقد أكثر النحاة المتأخرون الذين كانوا بعدهم في كثرة الاستشهاد بالقرآن وجعله في المنزلة الأولى في شروحهم وحواشيهم التي جعلت على المطولات واستدركوا ما أمكن استدراكه فابن مالك مثلا في الألفية قرر قواعد كانت محل خلاف لدى المتقدمين، وإن الدارس لمتون المتأخرين يدرك هذه المسايرة والجمع ما أمكن جمعه في اختيار أقرب مسلك من الطريقين، فكانت طريقتهم أحكم وأبين وكانت طريقة المتقدين أقوى في الحجية والتقعيد ، فاكتمل صرح النحو العربي بتأصيل المتقدمين واستدراك المتأخرين، فاشتد إحكامه وعظم بناؤه فصار بذلك علما مكتملا تعجز أمامه العقول وتذهل أمامه النفوس من شدة إحكامه وتأصيل تخريجاته وتفريعاته في البناء والإحكام .

هوامش

[1].الشمري، مبروك محمود، القراءات العشر المختلفة في العلامة الإعرابية وأثر ذلك في المعنى من خلال كتاب النشر لابن الجزري، ماجيستير، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، عام 1422هـ، 2001م، ص13

[2].ولد أباه، محمد المختار، تاريخ القراءات في المشرق والمغرب، المنظمة الإسلامية للتربية والعلوم والثقافة إيسيسكو، 2001 م/1422هـ، ص121

[3]. شعبان محمد اسماعيل، القراءات أحكامها ومصدرها،سلسلة دعوة الحق، السنة الثانية 1402هـ، شوال عدد19، ص139

[4]. الحمد،غانم قدوري، أصل القراءات القرآنية بين حقائق التاريخ ودعاوى المبطلين، مجلة الحكمة، 1420هـ العدد20، ص 136

[5]. مصدر نفسه ص137

[6]. الاشوح، إعجاز القراءات القرآنية دراسة، ص48

[7]. آل اسماعيل، علم القراءات نشأته أطواره وأثرة في العلوم الشرعية، ص 142

[8]. مكرم، عبد العال سالم، القرآن الكريم وأثره في الدراسات النحوية، مؤسسة علي جراح الصباح، ط2، 1978م ص77

[9]. الكيش، عبد الله محمد ، أثر القرآن في أصول المدرسة البصرية النحوية حتى أواخر القرن الثاني الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة الزيتونة، تونس، 1408هـ-1988م، ص192

[10]. سيبويه، عمرو بن عثمان بن قنبر، الكتاب، تحقيق، عبد السلام محمد هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1988،3 م، ج122/1

[11]. الحديثي، موقف سيبويه من القراءات والحديث، مجلة كلية الآداب العراقية ، العدد الرابع عشر، 1970-1971م، ص192

[12]. المصدر نفسه، ص 193

[13]. المصدر نفسه،ص 196

[14]. شلبي عبد الفتاح، أبوعلي الفارسي حياته ومكانته بين أئمة التفسير العربية وآثاره في القراءات والنحو، دار المطبوعات الحديثة، جدة،،1989م، ص163

[15]. المصدر نفسه، ص164

[16]. مصدر نفسه، ص 224

[17]. رعد كريم حسن، توجيه اللمع لابن الخباز دراسة لغويّة ونحويّة، كليّة التربية في جامعة ديالى، ماجستير،1429هـ -2008م، ص190.191

[18]. الكيش، عبد الله محمد، أثر القرآن في أصول المدرسة البصرية النحوية حتى أواخر القرن الثاني الهجري، رسالة دكتوراه، جامعة الزيتونة، تونس، 1408هـ-1988م، ص 175

[19]. هناء عيدان مهدي عودة الجعيفري، الخلاف النحوي في باب المبتدأ والخبر وما كان أصله المبتدأ والخبر، جامعة بابل، الماجستير، 1429هـ - 2008 م، ص 11

[20]. السامرائي، إبراهيم، المدارس النحوية أسطورة وواقع، دار الفكر للنشر،عمان، ط1، 1978م، ص141

[21]. انظر، السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر المزهر في علوم اللغة، تحقيق: محمد جاد المولى وزميليه،المكتبة العصرية، بيروت، 1986م، 1/56،55

[22]. انظر: العكيلي، حسن منديل حسن، دراسات نحوية ، دار الكتب العلمية بيروت لبنان، ص 179، 180

[23]. الخلاف النحوي في باب المبتدأ والخبر وما كان أصله المبتدأ والخبر، هناء عيدان مهدي عودة الجعيفري، جامعة بابل ، الماجستير 1429هـ - 2008، ص 11

[24]. المصدر نفسه ص 11

[25]. الطنطاوي محمد، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، دار المعارف ط2، القاهرة ، ص46

[26]. أبو الطيب اللغوي، عبد الواحد بن علي، مراتب النحويين ، ت:محمد أبو الفضل إبراهيم،المكتبة العصرية، بيروت ، 2009م-1430هـ، ص106

[27]. الطنطاوي، نشأة النحو وتاريخ أشهر النحاة، ص48

[28]. المصدر نفسه، ص48

[29]. المصدر نفسه، ص49

[30]. المصدر نفسه، ص50

[31]. المصدر نفسه، ص50

[32]. أحمد مكي الأنصاري، الدفاع عن القرآن ضد النحويين والمستشرقين، مطبوعات جامعة القاهرة،1973م،ص4

[33]. ضيف، شوقي، المدارس النحوية، دار المعارف، القاهرة، 1982، ص157

[34]. المصدر نفسه، ص 6

[35]. ينظر: درويش محسن هاشم، موقف الفراء من القراءات المتواترة، مجلة كلية الدراسات الإسلامية، دولة الإمارات المتحدة، دبي،العدد السابع والعشرون،2004م، ص20

[36]. الخثران عبد الله بن حمد، مراحل تطور الدرس النحوي، ص180.

[37]. المساعيد، إبراهيم سطعان عواد، الاستدلال بالقراءات القرآنية في كتاب الخصائص لأبي الفتح عثمان ابن جني الموصلي، رسالة ماجيستير، ص22

[38]. محمد عبد الخالق عضيمة،دراسات في أسلوب القرآن الكريم، مطبعة السعادة مصر ط1، 1392هـ،ج19/1

[39]. الطويل،السيد رزق، الخلاف بين النحويين، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط1، 1984م، ص166

[40]. الخثران عبد الله بن حمد، مراحل تطور الدرس النحوي، ص185

[41]. مهدي المخزومي ، الدرس النحوي في بغداد، بيروت لبنان،دار الرائد العربي 1989م ص82

[42]. انظر، إبراهيم بن صالح الحندود ، الضرورة الشعرية ومفهومها لدى النحويين دراسة على ألفية بن مالك، الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة الطبعة: السنة الثالثة والثلاثون، العدد الحادي عشر بعد المائة – 1421هـ/2001م، ص 394